تأثير الآداب

للآداب معان كثيرة فمعناها اللغوي حسن الأخلاق وفعل المكارم وأطلقه المولدون في الاسلام على علوم العربية وأعني به هنا المنظوم والمنثور من الكلام ومنزلته من الفصاحة والبلاغة ليفعل في الارواح فعل الراح. ولكل أمة أدب بحسب اصطلاحها ورسوم لغتها يطرب به عامتها فضلا عن خاصتها وتثار به الاحقاد وتحرك الحفائظ وتدعى به الى سبل السلام والوئام ويدلها على مواقع السداد والسؤدد ويذكرها بأيامها وأيام النازلين بقربها والقاصين عنها وهو على الجملة مسبر للوقوف على الحاضر والغابر ومهماز يدفع الى العمل بعد القول ومثار كل فضيلة رافعة ومنار كل نجح عاجل أو آجل.

لابد في كل نهضة دينية كانت أو مدنية ان تتقدمها الآداب ويتفانى ابناؤها في حبها شهد بذلك تاريخ الامم جمعاء. ألا ترى ان أديب القبيلة في الجاهلية كان يتدفق من لسانه معين البلاغة فتفعل كلماته في قبيلته يعقد بها سلمها ويشهر حربها ويعدد مفاخرها ومآثرها ويدون تاريخها وايامها وان سوق الادب عند العرب لما نفقت وكثر تغاليهم في نقلها وانشادها وأصبحت بينهم للبلاغة دولة، ولجوامع الكلم تأثير وصولة، نزل القرآن فادهش باعجازه البلغاء، وأسكت ببيانه مصاقع الخطباء، وتأدب رجال الخطابة والكتابة بآدابه وتبيانه فزاد تأثير الشعراء والخطباء أكثر من ذي قبل حتى كان أهل الحكم يحاذرون فلتات ألسنهم فيوسعون لهم من برهم مايقطعونها به.

ولما أخذت الآداب موقعها من النفوس ونالت حظها من العناية ونضجت ثمرتها حتى كادت تذبل عرف العرب ان كيانهم لايقوم بالآداب

وحدها وسلطتهم لا تأمن البوائق بنات الافكار وان دور الاقوال انقضى حكمه وجاءت النوبة للافعال ونضبت مادة البيان ومست الحاجة الى البرهان فانشأوا اذذاك يتوفرون على الاخذ من كل علم يزيد في سعادتهم ويضمن لهم الراحه الدنيوية كما ضمن لهم الدين الراحة الاخروية وكان من أمر علوم الامم وتناقلها بين ظهرانيهم ما كان من حسن الاثر وخدمة الحضارة والغضارة .

وهكذا لو بحثت في تاريخ كل أمة لالفيت الآداب روادها ، الى مسالك إسعادها وقوادها ، الى ذرى رقيها وإصعادها ، كان هذا شأن الفرس واليونان والرومان في القرون الماضية بل وشأن الترك والعرب في القرون الحديثة فانهم لم ينبغ لهم في التاريخ والسياسة وفنون الحرب والطبيعة والرياضة والفلسفة رجال أحرياء بالاعتبار بالنسبة لمحيطهم وأسبابهم حتى نبغ بينهم أهل آداب أمثال كمال وضياو ناجي والابيارى والفاروقي والاسير والاحدب واليازجي وكرامة والجندي والهلالي ومراش والشدياق والبربير وأمثالهم ممن بيضوا الصحف بما سودوه في القرطاس من رائع آدابهم وفيض قرائحهم وخفة أرواحهم .

وقر زعماء الأدب في الصدور بما نفثوه من صدرهم اكثر من العلماء والمفتنين بما خدموا به العلم والمدنية من نتاج عقولهم المستنيرة وما ذاك والله أعلم الا لان الادباء يكتبون للعامة والخاصة معاً أما العلماء فيكتبون للخاصة فقط . وشأنهم في هذا شأن أهل العلم والاختراع مع أرباب الاموال في الغرب لعهدنا فان الأول يتعبون في الابداع فلا يتمتعون بغير جزء طفيف من أعمالهم الشاقة الطويلة ويجيء أرباب المال فيجنون الثمرة غضة يانعة

قال بلونشلي الالماني في كتابه السياسة ما تعريبه : للآداب في أفكار الطبقة المنورة تأثير أعظم من تأثير العلم اذ ان جمال الشكل والصورة وقعاً كبيراً في النفس اكثر من العلوم التي هي في الغالب قضايا غثة باردة وان كتب شكسبير (١) وولتير سكوت معروفة اكثر من كتب باكون ونيوتن وان التمدن الافرنسي ينسب الى راسين وموليير أو فولتير أكثر منه الى بوفون ولابلاس ودوبين . وان كيتي وشيلر قد نوّرا وحسا طبقات اكبر من التي نورها كانت . والاخوان هومبولد وليسنغ قد أثرا بروايتهما في نأتان اكثر من روايات لاوكون اه

---

(١) شكسبير أعظم شعراء الانكليز ولد سنة ١٥٦٤ وتوفي سنة ١٦١٦ . وولتير سكوت روائي انكليزي مشهور ١٧٧١ ــ ١٨٣٢ . وباكون صاحب الخاتم في انكلترا على عهد يعقوب الأول ومؤسس المذهب الاختباري في درس العلوم . ونيوتن رياضي وطبيعي وفلكي انكليزي ١٦٤٢ ــ ١٧٢٧ . وراسين أعظم شعراء الفاجعات من الروايات عند الفرنسيس ١٦٣٩ ــ ١٦٩٩ . وموليير أشهر شعراء الفرنسيس صاحب الهزل والتنكيت ١٦٢٢ــ١٦٧٣ . وفولتير فيلسوف شاعر مؤرخ افرنسي صاحب الحزب الفلسفي في القرن الثامن عشر ١٦٩٤ ــ ١٧٧٨ . وبوفون طبيعي وكاتب فرنسوي مشهور ١٧٠٧ ــ ١٧٨٨ ولابلاس مهندس وفلكي فرنسوي ١٧٤٩ ــ ١٨٢٧ ودوبين متشرع وسياسي افرنسي ١٧٨٣ ــ ١٨٦٥ . وكيتي أعظم كتاب المانيا ١٧٤٩ ــ ١٨٣٢ . وشيلر أعظم شعراء المانيا ١٧٥٩ ــ ١٨٠٥ . وكانت فيلسوف المماني ١٧٢٤ــ ١٨٠٤ . والاخوان هومبولد أحدهما اسكندر كان سائحاً ومن رجال العلم والسياسة في بروسيا ١٧٦٩ــ١٨٥٩ . والثاني غليوم اشتهر بالسياسة وعلم اللغة ١٧٦٧ــ ١٨٣٥ وليسنغ شاعر ومنتقد المماني ١٧٢٩ ــ ١٧٨١

قال لي أحد ساسة الالمان يوم زار الامبراطور غليوم الثاني بلاد الشام أتدري لِمَ أحب مليكنا السلطان صلاح الدين يوسف حتى قصد دمشق لزيارة ضريحه وفاخر بأنه بات في مدينة عاش فيها من كان أعظم ابطال العصور السالفة قلت لاعلم لي بذلك قال لانه قرأ في صباه رواية وأظنه قال لشاعرنا شيلر تضمنت سيرة صلاح الدين ووقائعه فأشرب قلبه حبه وراح مالقنه في العاشرة يبرز أثراً من آثاره وهو في الاربعين .

قلت وهذا ملك عظيم في الحديث أثر فيه شاعر أمته أحسن تأثير على انه الأدب يلطف الشعور ويحسن العواطف ولقد كان جد هذا الامبراطور فريدريك الكبير لما عزم على إنهاض أمته من كبوتها يوعز الى الشعراء بواسطة بعض وزرائه ان ينظموا قصائد حماسية ترقق الاحساس وتكبر النفوس وتدعوها الى المعالي فكانت هذه القصائد سبباً في إنهاض المانيا ووحدتها على ماقيل

واليك مثالاً من تأثير الآداب في القديم قال معاوية بن أبي سفيان اجعلوا الشعر اكبر همكم واكثر آدابكم فان فيه مآثر اسلافكم ومواضع إرشادكم فلقد رأيتني يوم الهزيمة وقد عزمت على الفرار فما ردني الا قول ابن الاطنابة الانصاري .

أبت لي عفتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإجشامي على المكروه نفسي ... وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي
لادفع عن مآثر صالحات ... واحمي بعد عن عرض صحيح